

من هيثولوجيا استراليا السوداء أسطورة الخلق

يهي تجلب الحياة للعالم

في البدء كان العالم يرقد صامتاً في ظلام مطبق، لم يكن هنالك أية حياة، لا شيء يعيش أو يتحرك فوق تلك التلال العارية، لا ريح تصفر فوق القمم، لا صوت يكسر رتابة الصمت الأكبر. لم يكن العالم ميتاً، كان نائماً ينتظر لمسة الحياة والنهوض. الأشياء تضطجع نائمة في كهوف الجبال ومغاورها الجليدية. في مكان ما، في الفضاء الواسع تملمت يهي (Yhi) إلهة الشمس من رقابها منتظرة همسة بيامي (Baime) الروح العظمى لتأتي إليها.

ثم كانت الهمسة، الهمسة التي أيقظت العالم وأسقطت النعاس عن الإلهة كما يسقط الرداء إلى القدمين. فتحت عينيهما فطرد بريقهما الظلام وبدد بهاء جسدها العتمة واغتسل نهر "نولاربور" بالضياء فبان ما في أعماقه من نفايات.

ابتدأت يهي رحلتها المباركة بعيداً في الأرض، من الغرب إلى الشرق، إلى الشمال، إلى الجنوب، وفي كل مكان وطأته قدمها كانت الأرض تقفز متحفزة، تنبثق الأعشاب والاكمام والأشجار والأزهار متطاولة نحو مصدر النور، وكانت يهي تسير وتسير حتى اكتست الأرض كلها بالأخضر. لقد اكتمل أول عمل مفرح لها، فرقدت إلهة الشمس تأخذ قسطاً من الراحة فوق سهول نولاربور. تطلعت حوالبيها فعلمت أن الروح العظمى، بيامي، قد سرّه ما بذلته من جهد.

لقد بدأ فعل الخليفة قال بيامي. إلا أنها البداية فقط. العالم مليء بالجمال، ولكنه بحاجة إلى حياة راقصة لتكتمل آيته. اذهبي بضونك إلى المغاور والكهوف ولنر ما سوف يحدث.

نهضت يهي وشرعت في رحلتها إلى الأمكنة المعتمة تحت سطح الأرض. لم يكن هنالك أية بذور لتنمو وتمسي حياة من جراء ملمسها. ظلال كثيفة كانت متوارية خلف الصخور. لا، لا، لا، صرخت الأرواح الشريرة صرخات علت وتكاثرت وتردد صداها في العتمة الدامسة حتى ملأ المغاور والكهوف، إلا أن الظلال

أمست أقل كثافة إذ لمعت مشعة دوائر من نور بلوري، أشكال معتمة أخذت بالتلملم استغرقي في نومك . . . استغرقي . . . استغرقي صرخت الأرواح الشريرة، إلا أن الأشكال كانت تستجيب لمداعبة إلهة الشمس الدافئة. صفقت أجنحتها الشفافة، ارتفعت بأرجل طويلة، ألوان معدنية بدأت تترأى وللحال رأت يهي نفسها محاطة بحوريات تزحف، تطير، تدب، طالعة من كل زاوية وتتقدم متزاحمة صوبها ثم تبعتها خارجة إلى العالم، إلى الضوء، إلى معانقة العشب المنتظر وأوراق الشجر والزهر. تلاشت أصوات الشر وضاع صداها عبثاً إزاء قوة الحياة الناهضة. كان هنالك عمل ينتظر هذه الأجسام للقيام به في العالم، علاوة على وقت للهو وآخر لعبادة الآلهة.

”الكهوف في بطون الجبال، الجليد الأزلي“، همس بيامي.

خطت يهي فوق التلال فارشة ظلها فوق القمم. نائرة أشعتها فوق الجليد، ثم تقدمت عميقاً في قلب المغاور فارعتها البرودة المنبعثة من الجليد المتدلي من السقوف والحيطان. جليد يتكدس كثيفاً لا يستسلم، بحيرات مجمدة في نطاق من الثلج الكثيف المظلم

الضوء شيء لطيف وقاسٍ في الوقت ذاته، فهو قد يكون شفافاً دافئاً ورحيماً، كما أنه قد يمسى مخيفاً حارقاً شديد القسوة.

جبال الثلج أمست ماء صافياً وتحركت شعلة الحياة من قلب الموات. حركة تواج طفيفة بدت على سطح الجليد ثم بدأت تتكاثر وتذهب بعيداً في العمق، كتل من الجليد أخذت تطفو على السطح ثم ما لبثت أن تلاشت.

بفرح أذابت نفسها في المياه الخارجة من الأسر. أجسام غامضة خفتت وسبحت صوب السطح. فاضت البحيرة بمائها فاندفعت من فوهة الكهف منطلقة دفاقة إلى منحدرات الجبال. وزعت المياه على العطاش وأكملت طريقها صوب البحر وفي انطلاقها انتحت الزواحف جانباً لتبحث لنفسها عن ملاجئ جديدة بين الاعشاب والصخور في حين قفزت الأسماك سعيدة في قلب المياه المتدفقة.

”هناك كهوف أخرى كثيرة في الجبال“ همس بيامي

أخذته يهي بيده ونادت بصوت ذهبي ساطع: كل الأشياء التي بعثتها للحياة هي بلاد بيامي. إنها ملكه إلى الأبد ليتمتع بها، بيامي هو الروح العظمى وهو سوف يحميكم ويصغي إلي كل ما تطلبون. لقد شارفت مهمتي على الانتهاء لذا أريدكم أن تصغوا لما سأقول

إنني سارسل لكم فصولاً من الصيف والشتاء، الصيف بدفته لإنضاج فاكهتكم وجعلها صالحة للأكل، والشتاء للنوم، وفيه تجوب الرياح أنحاء العالم وتأخذ بعيداً كل ما نبذه الصيف. كما أن هنالك تغييرات أخرى سوف تحصل لكم ايتها المخلوقات الجميلة العزيزة على قلبي. أما الآن، فقد حان لي أن اترككم وأعيش بعيداً عالياً في السماء، وعندما تموتون فإن أرواحكم سوف تأتي لتعيش معي، أما أجسادكم فسوف تبقى

هنا في الارض .

ارتفعت عن الارض وتدلّت ككرة من الضوء في كبد السماء ثم غاصت على مهل خلف التلال الغربية .
حزنت المخلوقات جميعها وملاً الخوف قلوبها فقد عم الظلام مرة ثانية برحيل يهي
مرت ساعات وغلب المخلوقات النعاس فخفف النوم من حدة خوفها وحزنها . فجأة كانت هناك زقزقة
طيور ، فقد رأى هؤلاء الذين ظلوا مستيقظين ، إشعاعات النور من الشرق . أمست الزقزقات أشد وضوحاً .
طيور أخرى انضمت إلى الجوقة وكانت كلها تحيي يهي التي طلعت بهيئة جميلة وفاضت على السهول بضوئها
الصباحي الزاهي . واحدة إثر أخرى استيقظت الطيور والحيوانات جميعها وأمسى الامر يتكرر يوماً إثر يوم ،
فهدأ قلقهم وانفرجت كرتبهم فقد علموا أن الضوء سيأتيهم كل يوم ، سيكون هنالك دائماً شروق وغروب
وعلموا أن النهار للهو والعمل فيما الليل مخصص للراحة والنوم

كانت روح النهر وروح البحيرة أكثر المخلوقات حزناً على غياب يهي فقد حرمتا دفئها وحنانها فقامتا
تجاهدان قدر المستطاع حتى لحقتا بها الى السماء . ابتسمت لهما يهي فدابتا في نقاط من الماء ونزلتا على
الارض ثانية بشكل ندى وأمطار تنعش الازهار والنبات وتخلق حياة جديدة . بقي هنالك عمل واحد لم ينجز ،
فساعات الليل الشديدة الظلام كانت تصيب بعض المخلوقات بالرعب ، لذلك أرسلت يهي نجمة الصبح
لترافقها عند قدومها كل يوم ، ثم أحزنها أن ترى النجمة وحيدة مستوحشة فأعطتها القمر (باهلو) زوجاً
يؤنسها . زفرة فرح واكتفاء ارتفعت من الارض عندما أبحر القمر بجلاله عبر السماء مولداً حوريات من
النجوم وصانعاً مجدداً جديداً في السماء

تشكيلات الحيوانات الغربية

لا أحد يمكنه أن يدعي معرفة أكيدة للأشكال والحالات التي ظهرت فيها الحيوانات عندما بعثتها إلهة
الشمس ، يهي ، من قلب الجليد . فبعضهم قال إنها كانت على هيئة البشر رجالاً ونساء ، وقال آخرون إنها
كانت على أشكال أخرى مختلفة . أمر واحد كان مؤكداً وهو ، أن هذه الحيوانات ، بعد مدة من الزمن ، ملّت
الاشكال التي منحها إياها بيامي وأصابها حزن عميق . فهؤلاء الذين كانوا يعيشون في الماء أرادوا أن يعيشوا
على اليابسة ، وأولئك الذين كانوا يدبون على الارض رغبوا في أن يكونوا منطلقين محلقيين في الفضاء . كل
كان غير قانع بما وهبه فاكثأبوا وصاروا يختبئون من وجه إلهة الشمس . اختفت صيحات الفرحة من الاجواء
فشعرت النباتات الخضراء بما هم فيه من حزن وأسفت لحالهم

تطلعت يهي من عليائها فعرفت أن حزناً ثقيلاً يخيم على الارض . وما إن نزلت إلى الارض ووقفت في
سهل "نولاربور" حتى أسرع الحيوانات نحوها أفواجاً أفواجاً قادمة من كل مكان ومن جميع الجهات .
ها هي الإلهة قد عادت ، وهي ستصغي لطلباتنا ، هتفوا جميعاً
- اقتربوا خبروني ماذا يزعجكم ؟
ارتفعت بلبله ، ووصل مسمعها موجات من نداءات مضطربة

- كفى، كفى، لا أستطيع أن أسمع وأفهم ما تقولون إن تكلمتم هكذا دفعة واحدة. ثم أشارت إلى "الومبات" الذي تمنى جسداً يهرب به إلى الأماكن الظليلة حيث يستطيع أن يختبئ عن أعين الآخرين. ثم تبعه الكانغارو الذي أراد أرجلاً قوية تمكنه من القفز وذبناً ليحفظ له توازنه، وأراد الخفاش أجنحة تساعد على الطيران كالطيور، وطلبت السلحفاة أرجلاً تساعد على السير فقد أتعبها الزحف على البطن، أما خلد الماء^٢ المسكين فلم يستطع أن يقرّ رأيه على شيء وانتهى طالباً أجزاء متفرقة من عدة حيوانات. ابتسمت يهي، لقد علمت سبب شقاءهم، وابتسمت أيضاً لغرابة أشكالهم وتنوعها، وابتسمت كذلك لأنها عرفت أنها بتغييرها أجسام هذه المخلوقات فإن حياتها لن تتغير إلى الاحسن. فالبومة التي طلبت عينين أكثر اتساعاً وأشد لمعاناً عليها أن تختبئ في الأماكن المظلمة نهاراً وتسعى لاصطياد زاداها فقط اثناء الليل، والحشرات القضيبيية عليها أن تبقى لساعات دون أدنى حركة على الغصن حتى لتكاد تصبح جزءاً منه. وعلى البجعة ان تتعلم الوقوف في الماء جامدة كقصة على رجليها الطويلتين قبل ان تتمكن من الفوز بسمكة لامبالية.

ابتسمت بذكاء، فهي تعرف ان منحهم ما يطلبون لن يجلب لهم السعادة. وتعلم أيضاً ان سعيهم الدائم في سبيل العيش سوف يشغلهم ويبعدهم عنها. هي تعرف أن بعض التغييرات قد تحصل لهم فجأة أو على مهل في طريقة غامضة. فالعالم لن يخلو من المغامرات الغريبة ويجب أن يظل مليئاً بالتغيرات. صرفتهم وراقبتهم ينتشرون في كل بقاع الارض قبل أن ترتفع ثانية إلى السماء

امست قصة هذه التحولات تروى حول مخيمات النار آلاف السنين. عندما أتى الرجال والنساء للعيش فوق هذه القارة كانت الزواحف والدواب والقوافز والمخلوقات سريعة الركض تؤلف الحياة البرية التي اعتمدوا عليها في غذائهم وألهمتهم القصص الغريبة عن عاداتها وتقلباتها التي حصلت لها بإرادة الروح الكبرى بيّامي. ونحن إذ نرقد إلى جانبها حول نيران المواقد، فلنصغ أيضاً إلى الحكايات التي تعرفها قلوب أناس أكثر قرباً منا إلى قلوب آلهة الطبيعة

الرجل الأول

انتهى عمل الهة الشمس الآن، فقد جلب دفتها وحنوها المخلوقات الى الوجود، وكانت هي سعيدة تنعم بمحبتهم لها. وهي إذ تتركهم الان فلأنها تعلم أنهم أصبحوا برعاية الروح العظمى بيّامي، عقل الحياة وذكاؤها الذي لا جسده له.

"لا أستطيع الظهور على أبنائي وأبنائك"، قال بيّامي ل"يهي"، يجب ان آخذ شكلاً من لحم حتى يتمكنوا من مشاهدتي فيطمئنوا ويعرفوا أنني حقاً أبوهم

- للآلهة خالقها كما أن للمخلوقات خالق آخر. ان تضع روحك في هيئة حيوان ما فإن ذلك سيقبل من شأنك ويجعلك صغيراً غير محترم في نفوسهم

- إذن فأنتي سأضع شيئاً قليلاً مني في هذه الحيوانات، قال بيّامي

وهكذا منح بيامي جزءاً من قواه العقلية للطيور والحشرات والزواحف والأسماك والحيوانات، وهذا القليل الذي وهبوه هو ما يعرف بالغريزة. إلا أن بيامي ظل غير راضٍ عن الأمر - عقلي كله يجب أن يوضع في قالب ما فيه حياة، قالب يستحق هذه الهبة. إنني بحاجة إلى خلق جديد

من سلسلة عمليات فكرية، وذرات ميكروسكوبية من التراب وتشكيلات من دم وغضاريف وأوتار وبشرة وتلافيف دماغ، صنع حيوان ينتصب مستقيماً على قائمتين وله يدان صممتا لتمكنه من استعمال السلاح والالات، وفوق كل ذلك له عقل يستطيع أن يصغي لخلجات الروح، أكبر الحيوانات جميعها، أعد ليكون وعاءاً للقوة العقلية وللروح العظمى

صنع هذا المخلوق بسرية فائقة. لم تره عين فقد استنفذت الدقائق الأخيرة لفعل الكون في صنع آخر عملية خلق عظيم. عمّ الظلام والحزن على غياب الروح العظمى، عمت الفيضانات الأرض فلدجأت الحيوانات إلى كهف عالٍ في الجبال، وكان من وقت لآخر يتقدم واحد منهم إلى مدخل الكهف يستطلع ما آلت إليه حالة هذه الفيضانات، إلا أنه لم يكن هنالك أي شيء واضح. فقط، جرف المياه تحت سماء لا شمس تشع عليها.

ذهبت "غوانا"؛ الأكثر حكمة بين الزواحف، تستطلع بنفسها ولكنها عادت مسرعة ذاهلة - لقد رأيت شيئاً مستديراً شديداً اللمعان كالقمر يرقد خارج الكهف، قالت - هراء، قال النسور، "باهلو" القمر في السماء - قلت إنه مثل القمر، هكذا بدا لي - خرج النسور وعند عودته نظر الجميع إليه مترقين - إنه كانغارو، قال النسور باقتضاب، له عينان لامعتان ولكن من السخف أن نقول أنه القمر. العينان تلمعان بشدة حتى أنهما اخترقتا جسدي - هذا شيء غريب قالت الحيوانات، فالغوانا قالت إنه القمر والنسور قال إنه الكانغارو، من نصديق منهما؟! -

أيها الغراب أنت الاحذق بيننا. إذهب واستطلع ثم عد لنا بالخبر اليقين عن سر هذا الكائن الغريب نفض الغراب ريشه وبقي دون حراك إلى أن دفعه الآخرون إلى المقدمة. عندها صفق بجناحيه وطار إلى شق في الصخرة حيث لا يتمكن أحد من الوصول إليه أتركوني وشأني، قال غاضباً، لا رغبة لي في ذلك. هذا أمر لا شأن للحيوانات والطيور به. إذا بقينا هادئين قد يذهب لحاله.

- إذا كان الغراب خائفاً أنا أذهب، قالت الفأرة بشجاعة، ودرجت بحذر ولكنها عندما عادت لم تستطع الكلام. كانت الحيوانات تتقدم واحدة تلو الأخرى نحو مدخل الكهف وتتطلع إلى الشيء الغريب الذي يقف وسط الضوء وتعود ذاهلة إلى أماكنها دارت نقاشات كثيرة فيما بينها، فالجزء الصغير من عقل بيامي الذي يمتلكه كل منها تعرف على الجزء البسيط من العقل الكلي الذي كان مغلفاً باللحم خارج الكهف دام الليل طويلاً لا ينقشع لمدة لم يستطع أحد تحديدها في شروق أو غروب. بدأت الحيوانات تحس بالجوع

فقتل النسور جرداً وأكله . مزقت الحيوانات الكبيرة الاخرى الصغيرة وقطعتها قطعاً صغيرة والتهمتتها . سمع بيامي تلك الجلبة فترك الجبل حزيناً لأن الحيوانات اكتشفت المتعة التي تتحقق لأحدهم بموت الاخرين . عند رحيله أفاضت يهي نورها على العالم ، فخرجت الحيوانات التي بقيت على قيد الحياة من الكهف وتجمعت على رأس التلة . هناك على قبة سقف العالم ظهرت الروح العظمى كاشفة نفسها للمخلوقات . هناك وقف بيامي امامهم على هيئة إنسان يسيطر على كل المخلوقات لأن له روح بيامي وذكاءه في جسد بشري

وفيما هو يجوب في الارض ، أحس "رجل" ، الذي له عقل بيامي ، بالوحدة . مشاعر غريبة سرت في جسده ، رغبات غامضة اعترته ، احس بالحاجة إلى رفيق يشاركه جمال العالم ، فأخذ يبحث عن واحد دون جدوى . قصد الكانغارو والومبات ، الحية والعظاية ، العصافير والخفافيش ، السمك والحنكليس ، الحشرات وديدان الارض ، ولكن دون جدوى . كان يشعر بميل نحو هذه المخلوقات فجميعها كانت تحب بيامي ولكن ما عندها من عقل لم يكن كافياً لإرواء ظمأ روحه .

اتجه نحو الاشجار والازهار والاعشاب ، فتنه جمالها إلا أن تأثيرها لم يتعد حواسه ، فروح بيامي لم تكن موجودة فيها . أزهار نبة "الواراتا" ° المشتعلة بجمال وغزارة ألوانها ، القصب بذهبيته الفاخرة ، شجرة الاوكاليتوس بجمال قشورها الفضية وعبير وريقاتها ، أمور أفرحت بصره وأذكت حواسه فاستنشق عبيرها فتغلغلت عميقاً في رثتيه ولكن روحه لم تعرف الاستقرار

حل المساء فاضطجع لينام قرب نبتة الياكا ° . كانت الاحلام الغريبة تقلقه طوال الليل ، أحس وكأن رغباته على وشك أن تتحقق . عندما استفاق كانت يهي قد غمرت السهل بشعاعها وبدا أن أشعتها مسلطة على ساق نبة الياكا . أمعن التحديق بالنبتة فأخذته الدهشة . لقد سمع لهج أنفاس عميقة . تطلع حوله فادهشه تجمع مخلوقات العالم كلها هناك في السهل وقد خيم في الجو شعور توقع حدوث أمر عظيم .

أعاد التحديق بالنبتة ، رآها تتغير ، عنق زهرتها بدا أطول وأكثر استدارة ، أطراف بدأت تتكون . ومن عميق دهشته علم "رجل" ان الشجرة تتحول الى مخلوق ذا قائمتين على شاكلته إلا أنه كان مختلفاً . الاطراف أكثر نعومة . ثديان مستديران تشكلا أمام عينيه ، وغطاء مهيب للرأس الجميل كان قد تكوّن . رفع "رجل" يديه نحو المرأة فصافحتهما وخطت باعتزاز عابرة الدائرة العشبية التي تحيط بالشجرة . أمسكها "رجل" بيديه ومعاً تفحصا العالم المنتظر . . . رقصت الحيوانات فرحاً ثم ركضت مبكية على مسافة منهما . كانت سعيدة لأن وحدة "رجل" قد انتهت ، العزلة المضنية انتهت لتبدأ مسؤولياته وواجباته . أتت المرأة على مهل إلى الحياة واتحدت بزوجها . اصطاد هو لها طعامها وبحث لها عن مأوى . اظهر لها حباً ولطفاً ، أمور هي ثمرة الروح . علمها أسماء الحيوانات والطيور وطرق عيشهم . تعلمت ان تحبه وتعمل لأجله . أن تكون الجزء الاخر الذي لا غنى عنه لتحقيق السعادة والاكتفاء

ابتسم بيامي وقال : " عندما أريد أن اكشف نفسي للاشياء الصغيرة التي خلقتها ، سوف أكون سعيداً جداً لأظهر لها على هيئة إنسان .

بقي بيامي على الارض لمدة طويلة على هيئة انسان . أحب العالم (تيا) الذي قيل أنه كان فيما مضى قطعة من الشمس ذاتها . يوماً إثر يوم، كانت يهي تبتسم له وهي تجوب السماء الواسعة . وذات يوم تكلم إلى الرجال والنساء والحيوانات التي تجمعت حوله

- آن الاوان أن أترككم يا أطفالي . عندما كان العالم صغيراً كنتم بحاجة إليّ، أما الان فقد اكتمل نموكم ومن الافضل أن تعيشوا بمفردكم^v

نجمة حبيب

استراليا

هوامش

(١) - سبق وأن نشرت الكرمل مقالة بعنوان "قراءة في ميثولوجيا استراليا السوداء" (عدد ٦٩) تعرضت فيها الكاتبة الى معتقد الابوريجينيين، سكان أستراليا الاصليين، لخصت فيها معاني وقيم زمن الحلم الابوريجيني... ويمكن اعتبار "أسطورة الخلق" هذه، تكملة وإضاءة لما جاء في المقالة السابقة

Wombat - (٢)

نوع من السناجب البيضاء المعروفة في الصحراء الاسترالية يتميز عن السنجاب الاميركي الذي يعرف بنفس الاسم بان له ذنب قابل للانقباض

(٣) - Possum حيوان من فصيلة الحيوانات التي تحفر عميقا في الارض وتلد اطفاله في حالة غير مكتملة وتحملها في جيب لها

(٤) - Goanna سحلية استرالية ابوريجينية التسمية

(٥) - Warratah شجيرة استرالية غنية بزهرها الغزير الزاهي الالوان اللفظة ابوريجينية

(٦) - Yakka شجرة منمرة دائمة الخضرة

(٧) - Aboriginal Stories, A. W. Reed, Reeds Book, NSW, 1995, Creation Myth", no definite author,-

(p: 11-21 (translated by NejmeH Habib